كلمة الأستاذ الدكتور / عبدالحميد ابراهيم - رئيس قسم اللغة العربية

سادتي .. سيداتي

كان يحلو للدكتور طه حسين أن يردد بيتين لابن المعتز :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ... ليس يرى شيئا ، فيأباه

يهيم بالحسن ، كما ينبغي ... ويرحم القبح ، فيهواه

وكأن ابن المعتز يتحدث بظهر غيب عن الحميد ، فقد كان ذا قلب وثاب لايركن إلى المسلمات ، ولايستكين إلى العادات ، لاينسيه القديم الجديد ، ولايغريه الجديد عن القديم ، يمتص كل شئ ، ويقرأ في كل لون ، ثم يطبع كل ذلك بطابع من شخصيته ، التي لاتضيع في آراء الآخرين ، والتي تفجر المعرفة في نفوس المتلقين .

إن الحديث عن طه حسين ، ذو شجون ، فهو متعدد الجوانب ، متعدد التأثير ، إنه رمز لجيل كامل ولحقبة تاريخية محتدمة ، وقد درجت جامعة المنيا ، وهي تحتفل كل عام بذكراه ، أن تتحسس جانبا من جوانب شخصيته فتجعله منطلقا لمهرجان ثقافي ، وعيدا يزدهي فيه المثقفون ، بأزهى ماعندهم ، من قصيدة وفكر وبحث ، احتفلت العام الماضي بموضوع الرواية العربية ، واحتفلت العام الذي قبله بموضوع القصة القصيرة ، وتحتفل هذا العام بموضوع النقد العربي المعاصر ، وفي كل عام تمتلئ المدرجات بالحوار ، ويحتد النقاش ، وتدور الخلافات ، ولكن يظلل الجميع روح طه حسين التي ترف فوقهم في نورانية ، وتبتسم في سعادة غامرة ، فقد تحولت الذكرى من نحيب ورثاء ، الى مهرجان وعيد .

سادتي .. سيداتي

حين أصدر طه حسين مجلة الكاتب المصري (صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٤٥) قطع على نفسه عهدا - كما يذكر الدكتور محمد حسن الزيات - بألا تحيد المجلة عن الحرية الواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين ... لن تقصر دورها على أدب دون أدب ولن تؤثر باهتمامها ، ثقافة دون ثقافة (مقدمة ماوراء النهر) .

إن هذه الجملة التي وقع عليها صديقنا الأستاذ الدكتور/ محمد حسن الزيات تلخص في وضوح منهج الدكتور طه حسين في النقد الأدبي ، فهو لايحبس نفسه في قالب

صارم ، أو في مدرسة معينة ، انه ينتقي من كل شئ ، وفي صورة تكاملية ، كانت تحتاج اليها مصر ، في فترة تريد فيها أن تعرف القديم والجديد ، وأن تطلع على كل الثقافات ، وأن تغترف من كل المدارس . ان الصدور عن مدرسه معينة أو فلسفة معينة ، وان التطلع إلى نسق شامل ، هو ضرب من المستحيل في تلك الفترة التي بدأت فيها الصحوة ، وان الأفضل من كل ذلك هو مافعله طه حسين ، بأن ينتقي الثقافة ، فيقدمها ويشرحها ، وأن يطارد الاستكانة والجهل والخوف ... أما مابعد ذلك من نسق ونظام وفلسفة فهو رسالة الأجيال القادمة .

وكان طه حسين واعيا بفكرة الأجيال القادمة ، مدركا منطق التاريخ ومن هنا حرص على خلق تلاميذ وحواريين ، يحملون الرسالة ، إن عظمة طه حسين ليست في كتبه فقط ، ولا في انجازاته التعليمية فقط ، ولا في محاضراته الجامعية فقط ولكنها فوق كل ذلك في تلاميذه الذين يحملون أفكاره ، وأنه معلم ، هدفه الأول أن تستمر الأمانة ومن هنا نراه في كتاباته لايسيطر على قارئه ، ولايسرق وعيه ، ولايبهره بمعجزاته ، إنه يحاول أن يفجر داخله ، وأن يخلق منه إنسانا متيقظا ، يفكر ويوازن ، ويعلق ويقلق ويسخط ويرضى ، حتى في قصصه وروياته يلتفت إلى قارئه ويخاطبه ، ليوقظ لديه الوعي ، وليمنحه الحرية في التفكير ، وليجعله شريكا في العملية الأدبية ، إنه يحادث القارئ خلال روايته (ماوراء النهر) فيقول له "فالإنتاج الأدبي إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الاديب في حقيقة الأمر إلا رائدا يمهد الطريق ، وماينبغي للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التي تثير فيهم الغرور ، وتغريهم بالكبرياء ، والذي أريد أن أصل اليه هو أني أعتمد على القراء في أن يعمل كل منهم خياله ماوجد إلى أعماله سبيلا ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع مايكون الجمال ، وهذه القرية قبيحة كأبشع مايكون القبح ، وألا تكون قراءاتهم سلبية غير ذات غناء ، فهذه القصة لاتحتمل القراءة السلبية ، وإنما هي تريد ، بل هي لاتقوم إلا على المشاركة الايجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط ، وبين القارئ حين يتم الرسم ويملأ مابين الخطوط من فراغ ، لعله ترك عن إرادة وعمد" (ص ٢٩) .

سادتي سيداتي :

وصدقت فراسة طه حسين ، وحمل تلاميذه من بعده المشاعل ، وكان

الدكتور عبدالقادر القط أبرز هؤلاء التلاميذ ، لقد درجت جامعة المنيا كل عام أن تكرم علما من أعلام مصر ، كرمت من قبل صلاح عبدالصبور ويحيى حقى ونجيب محفوظ وفاروق خورشيد ، وتكرم اليوم عبدالقادر القط ، لايدفعها إلى ذلك شللية أو مجاملة أو "شيلنى وأشيلك" ، فهى ولله الحمد بعيدة عن تنافس العاصمة وصخبها ، بعيدة عن أجهزة الإعلام وإغراءاتها ، مما يجعل أحكامها موضوعية ومحايدة ، أنها تضرب المثل الصحيح على الموقف الجامعى ، الذى يحكم بنزاهة بين الفرقاء ، لايخدعه بريق الاعلام ، ولارنين الصولجان .

كان طه حسين فائزا ثائرا ، وكان الدكتورالقط وديعا هادئا ، اختلفت الوسيلة ، واختلف الطبع ، ولكن النتيجة واحدة ، فقد ترك كل منهما بصمة على حياتنا الأدبية ، ولم يتم ذلك بطريقة الصدفة ، فالتاريخ لايعرف الصدفة ، بل كان ذلك بسبب صفات تحققت عند الرجلين ، وامتحنتها الأيام ، فأثبتت جدارتها

لقد كان الرجلان يصدران عن نظرة شاملة ، لاتقف عند قديم فقط ، أو جديد فقط ، ولاتتجمد فى مقولة اجتماعية ، أو صيغة حزبية ، وكان الرجلان أيضا يهتمان بديناميه العمل الفنى ، مما لايجريان وراء مدلولاته الاجتماعية ، أو شواردة النفسية ، أو منشوراته السياسية ، انهما يهتمان بالدرجة الأولى بالوجود الفنى ، ويصافحان من خلاله القضايا الاجتماعية ، والمشكلات النفسية .

لقد ظل الدكتور عبدالقادر القط ينتج فى الحقل الأدبى أكثر من ثلاثين عاما ، شهدت مصر خلالها أحداثا جساما ، دعوة إلى المنظمات العسكرية ، ودعوة إلى عجلة الرأسمالية ، ودعوة إلى السلفية ، ولكن على الرغم من كل ذلك لم يتحول الدكتور القط إلى بوق ، وظل حريصا على متن العمل الفنى ، الذى يتجاوز كل دعوة ، ويتخطى الحواجز والعصبيات .

كتب الدكتور عبدالقادر القط دراسة قيمة تحت عنوان (شعر المقاومة بين الفن والالتزام - فى الأدب العربى الحديث - القاهرة - مكتبة الشباب ١٩٧٧) واجه فيها مشكلة العداء التقليدى بين الالتزام والفن ، ورأى فى النهاية أن الإخلاص للفن هو نفسه الالتزام الحقيقى ، يقول : يبدو أن أسلم وسيلة لاجتياز هذه القضية ، أن يحاول الشاعر تجنب الحديث المباشر المرتبط ارتباطا بينا بالقضية ، ويضفى على

قصيدته أكبر قدر من الشفافية والقدرة على الايحاء المبهم العام .. فبهذا الأسلوب يستطيع الشاعر من ناحية ، أن يكسب تجربته صفة الإنسانية الواسعة ، ويستطيع من ناحية أخرى أن يستخدم معجما ثريا من الألفاظ والصور الشفافة القادرة على الايحاء والرمز (ص ٣٩) .

سيداتي .. سادتي ..

ولكن هل توقفت المسيرة عند الدكتور/ طه حسين أو عند عبدالقادر القط ، ما اظن ذلك ، فمصر دائما ولادة كما كان يقول السادات رحمه الله ، تمر بها أحلك الظروف وتتعالى كالعادة صيحات المتشككين ولكن فجأة يظهر بها الجبرتي والطهطاوي ومحمد عبده وطه حسين .

يحلو للكثيرين ممن يبحثون عن الأزمات أو يصدرون عن عقدة الذنب والصياح أن يرددوا؛ النقد المعاصر في أزمة وأن الجيل الحالي أقل من جيل طه حسين والعقاد ، وأن هناك انفصالا مشئوما بين الصحافة والجامعة ولكن ياهؤلاء مصر بخير ، وهي دائما في تقدم ، فبدلا من الجامعة الواحدة هناك خمس عشرة جامعة ، وبدلا من دكتور واحد هو العميد هناك آلاف الدكاترة ينتشرون في أرجاء مصر ، وبدلا من القاهرة وحدها هناك المنيا وسائر الأقاليم ، وبدلا من أن يكون الجيل جيل طه حسين أو العقاد ، فان الجيل الحالي هو جيل جميع النقاد الذين يقفون المدرجات الجامعية ، وأعمدة الصحف ، ومجلدات الكتب ، إن مايكتبه مدرس مغمور في الجامعة ، في قنا أو سوهاج أو في دمياط ، لايقل عما كان يكتبه أحمد ضيف ، ومنصور فهمي ، أو حتى زكي مبارك ، إنها لظاهرة صحية ألا ينسب الجيل إلى فرد واحد ، فهذا ايذان بأن عصر الفرد قد أخذ يتلاشى وأن عصر الفريق قد بدأ يلوح في الأفق ، وإنها لظاهرة صحية أيضا ألا تختلط وظيفة الجامعة بوظيفة الصحافة ، ففي البلاد المستقرة والمتقدمة ، تعيش الجامعة بعيدا عن الصخب اليومي ، ولكن تستطيع في عزلتها أن تقدم الموسوعات ، ودوائر المعارف والمصطلحات وغير ذلك من أسس ثابتة ، تقوم عليها حضارة المجتمع ، لتترك الجامعة بعيدا عن أي صخب يومي حتى تستطيع أن تقوم برسالتها ، ولتترك الصحافة تعايش هدير الجماهير دون أن تعوقها النظريات والتفريعات ، فهذا شئ صحي لكلا الطرفين ، يكفي أن الجامعي يدرك رسالته ، ويكفي أن الصحفي يقدم موضوعه في فهم وتحليل ، بعيدا عن فرقعة الإثارة .

إن جمعكم اليوم ، أعزائنا الكرام ، هو أكبر دليل على أن مصر بخير ، ففي إقليم بعيد عن القاهرة كثيرا ، يحتشد الناس ، مابين طالب وضابط ومهندس وطبيب وأديب ، لا من أجل مظاهرة انتخابية ، أو دعاية سياسية ، ولكن من أجل مهرجان ثقافي ،

تقال فيه الكلمة، وتناقش القصيدة، و تطرح الفكرة .

بين أيديكم الآن - سادتى سيداتى - كتاب قيم تهديه لكم جامعة المنيا فاحرصوا عليه، انه كتاب جدير أن يغنى المكتبة العربية ، إنه يحتوى مجموعة من البحوث التى القيت فى العام الماضى ، قدمها فريق من مصر والاتحاد السوفيتى وبولندا والصين ، انها مظاهرة ثقافية نظمتها جامعة اقليمية ، فأين الأزمة إذن ، ولماذا الصياح والعويل والرثاء ، والذى أصدح به من تركيباتنا النفسية ، يجب أن نتحرر منها حتى لاتعوق مسيرتنا .

سادتى سيداتى ..

لوبقيت من حياة طه حسين العبرة فقط ، لكانت كثيرة وخالدة، وأكبر عبرة هى أن نترك النوافذ مفتوحة ، فالتعرض للتيارات الهوائية هو أفضل طريقة لاكتساب الجسم مناعة، لاتخشوا من سياسة النوافذ المفتوحة، فمصر تملك مصفاة كونتها على مدى التاريخ، تبقى الصالح وتنفى الخبيث، لقد تطرف طه حسين فى تطبيقه منهج الشك الديكارتى على العقائد، وتطرف خصومه فى الرد عليه، وصفت مصر كل ذلك، ليبقى طه حسين كقيمه، تحتفل لها الجامعة اليوم، ويحتشد من أجلها المثقفون، من قبل قال جوستاف لوبون (مصر مقبرة الغزاة) وهو يعنى بذلك أن مصر من الأعراق العتيقة ، التى تمتص الغزاة القادمين اليها، وتحيلهم إلى خلية فى بنيتها الحية، ونحن نقول اليوم (مصر مقبرة المتطرفين) تصبر على العجولين والمتهورين ، وتمتصهم فى هدوء ، افتحوا النوافذ ، فمصر لن تضيع ، إنها مقبرة الغزاة ومقبرة المتطرفين أيضا .